

جماليات السرد في النص الشعري القديم

" إن البحث عن موقع تحت الشمس لأي أمة من الأمم ينبني على مدى وعيها بقيمة قيمها الحضارية و الثقافية و هو وعي لا يتحقق إلا بمساءلة منظوماتها الفكرية سواء تلك التي أنتجت في أزمنة غابرة أو تلك التي تستعد للولادة في زمن آت "

تمهيد:

انبنيت الممارسة النقدية في مجملها عند القدامى على الفصل بين الشعر و النثر و بذلك فقد تشكلت مجموعة من المعايير أصبحت متحركة في مجملها في قراءة النص الشعري. ليأتي بعدها المعطى الديني الجديد (نزول القرآن) و يمارس صياغة جديدة للموروث الثقافي ككل.

البنيات السردية و دلالتها في القصيدة العربية القديمة:

بنية الفضاء: إن تشغيل الفضاء ككون سردي له بعده الجمالي و الدلالي في القصيدة العربية القديمة.

و على حد قول باشلار أن نتذكر البيوت و الحجرات يعني التعلم " كيف نسكن داخل أنفسنا"⁽¹⁾ و الخيال هو المكون الأساسي لكل مكان و يمارس الخيال بناءه بواسطة: " جدران من ظلال دقيقة مريحا نفسه بوهم الحماية أو العكس "

إن البيت عند باشلار شبيه بالماء و النار لا سيما و أنه يتيح له فرصة استرجاع لمحات من أحلام يقظة تضيئ ذلك الدمج بين القديم و المستعاد من الذكريات، إنه: " يحمي أحلام اليقظة و الحالم و يتيح للإنسان أن يحلم بهدوء و هو من أهم العوامل التي تدمج أفكار و ذكريات و أحلام الإنسانية "

إن دمج البيت كأفكار و ذكريات و أحلام الإنسانية يعني ضمناً أنه يحمل ثلاثة تجليات سردية أساسية: الذكريات و الأفكار و الأحلام، و من هنا تتأسس أهمية المكان ليكون مصدراً للحكي.

إن فضاء الذكرى المرتبطة زمنياً بالماضي في الشعر القديم و المعلقات على نحو خاص يمكن اعتباره المنطلق الحقيقي لممارسة الشاعر لأحلامه فيحضر المكان في سياق البكاء و التذکر

¹ - غاستون باشلار "جماليات المكان" ص: ١٧

إن حضور فعل الوقوف قصد البكاء في المعلقات أعطى لهذا التحديد صفة الفضاء لان هذه الأمكنة لم تعد مجرد أمكنة عادية بل أصبحت تحتضن مجموعة من الأحداث و من هنا وجب التعامل معها على أنها عامل فاعل لا سيما و أنه تم تقديم هذه الأمكنة ضمن سياق موسيقي إيقاعي.

و يؤثت الشاعر الجاهلي لفضائه بوفر من الدلالات العاطفية (الشوق، الذكرى) ليتحول الفضاء مع أبي نواس من ديار المعشوقة إلى ديار الخمرة التي ستشكل قمة الحكي لديه و يمكن الاستدلال على هذا التحول من الفضاء (المرأة و الشوق و الذكرى) إلى فضاء الخمرة و الحانة باعتبارها فضاء جديدا (اللذة و العريضة) بالبيتين التاليين:

دارت على فتية دان الزمان لهم فما يصيتهم إلا بما شاؤوا
لتلك أبكي و لا أبكي لمنزلة كانت تحل بها هند و أسماء

بنية الشخصية: إن توظيف الأنا في مجال السرد و الشخصيات له دلالة أساسية تتحدد في كون الأنا لأقوى تعبير عن الإنسانية و البحث في الشخصية هو بحث في بنية سردية متميزة و هي بمثابة علامة دالة.

و تعد الشخصيات من العناصر الأساسية في أي عمل قصصي لذلك نجد السارد: "يتماهى مع الشخوص و يبرز أصواتها بإعادة إنتاج أقوالها بحسب أنماط سردية مختلفة"

و يوقع الشاعر شخوصه حسب المحطات السردية و يعطيها ما يناسبها من توصيف لتحرك الأحداث و تساهم في دينامييتها

بنية الزمان: بانتقالنا إلى الزمن كمكون سردي شعري نكون أمام أحد الإشكالات الإبداعية و الجمالية. والتمثل في البحث في هذا المكون لذاته أولاً، إذ أن الكثير من الدراسات قد أثارت مسألة الزمن ضمن سياقات عامة و مختلفة.

و مهما كانت طبيعة وعي الإنسان بالزمن و مهما كانت طبيعة تشغيله لهذا المكون فإن هذا يتم وفق رؤية ثقافية معينة تعبر عن طبيعة الذات الموظفة لعنصر الزمن في علاقتها مع الآخر و العالم⁽¹⁾

و لفهم البعد الدلالي لاشتغال الزمن داخل القصيدة العربية القديمة لا بد من الانطلاق من أشكال الوعي الزمني التالية: ضرورة الوعي بمكون الزمن مجالا تتداخل و تتقاطع فيه مجموعة من العلوم دقيقة كانت أو إنسانية (الفلسفة، الفيزياء، الأدب، الدينات و المعتقدات) مما يدفع الباحث إلى ضرورة الاطلاع على كيفية تشغيل الزمن داخل هذه الفضاءات.

¹ - الحبيب ناصري: "جماليات الحكي في التراث العربي الشعري" ص: ١٤٨

يبدو أن تقديم الشاعر لزمن البكاء على الأطلال و تذكر المحبوبة إحساس له بعده الإنساني و المتمثل في عدم قدرة الإنسان على مواجهة قوة الزمن؛ إنه إحساس بعدم القدرة على استمرار تملك اللحظة الخالدة. و حضور الطلل يعني ضمناً حضور الماضي بكل قوته و حركيته العاطفية و الوجدانية و هو هنا بمثابة علامة ينبغي للمتلقي أن يدرك قيمتها الزمنية الكاشفة عن ضعف الإنسان أمام الزمن.

و إحضار الطلل يكتمل بإحضار المرأة (العشق، الجنس) رغبة ضمنية في توقيف الزمن من خلال التشبث بالطلل. و موقعة الشاعر للمرأة داخل زمن الماضي يعني ضمناً رفضه لموقعها داخل الحاضر المرفوض و المرتبط بفقدان لحظته و بالتالي لذته.

